

قال قسطنطين مُغضبًا: ألي يُقال هذا؟ وما رأيتُ بطريقًا من البطارقة قد حَمَلَ بعض ما حملتُ من عبء الدفاع عن ذلك الثغر؛ فإن كانت بنتاي قد سُبِينَتَا واحدةً بعد واحدة فما قَصُرْتُ في الدفاع، ولا عَجَزْتُ عن الثَّأر؛ وما طَرَقَ العدوُّ أبيدوس مرةً إلا خَلَفَ نصف جنده على ثراها صرعى، أو أُسَارَى مُقَرَّنِينَ في الأصفاد؛ ووالله ما يخدم أهلي — منذ بعيدٍ — إلا الأسارى من سادة العرب! وكأنما أجدُّ هذا الحديث ذكرى أليمة لقسطنطين، ومسَّ عاطفته حديثُ بنتيه، فغلبه مدمعُه ...

وكان قسطنطين هذا بطريقًا شيخًا، قد نَيْفَ على السبعين، وكان له — في تلك الدولة — سلطان وجه، قبل أن يتغلب على عرشها هؤلاء المتغلبون من السُّوقَة والطَّغام، وكلُّ صاحب أيدٍ وكيد، من قيصر كان غنَّامًا، وآخر كان جانيًا، وثالث كان جنديًا في المؤخرة فبرز إلى الطليعة، ثم ترقَّى إلى القيادة، ووثب على العرش،^٨ فلما اضطرب حال القياصرة وضعفت مهابتهم في نفوس الخاصة والعامة، وأذنت الدولة بهذا الانحلال الخطير؛ اعتزل البلاط، وعزف عن السياسة وأوى إلى هذه البليدة على الشاطيء الأسوي من خليج القسطنطينية، فحشد فيها أهله وولده وقبيله، واتخذها دار إقامة بعيدًا عن مكاييد الساسة ومؤامرات القُوَّاد وتقلُّبات الحوادث ...

ولكنه — وقد التمس الهدوء في موطنه هذا الجديد — لم يوفَّق إلى ما أراد؛ فإن غارات الفدائيين من العرب لم تزل تناله من البر والبحر، فلما كانت أيام القيصر «قسطنطين بوجونات» وحاصرت جيوش معاوية مدينة الروم فطوّقتها برًا وبحرًا بالآلاف من السفن وعشرات الآلاف من الجند،^٩ نزلت أبيدوس سريةً من سرايا العرب فأعجلت أهلها عن الدفاع، وعاثت فيهم عيثًا شديدًا؛ ففتكت وهتكت واحتملت أسارى وسبايا، وكان فيمن سُبِينَت «رُوديا» بنت قسطنطين نفسه؛ وقد دافع البطريق البطل عن أهله وولده وبلده ما استطاع الدفاع، حتى ردَّ العرب على أدبارهم، ولكنه لم يستطع أن يستخلص فتاته السبيَّة، وحُمِلَت فيمن حُمِلَ من الأسارى والسبايا إلى دمشق ... وتتابع غارات العرب — بعد ذلك — على هذا الحصن الصغير كلَّ صائفة وكل شاتية، ولكن قسطنطين لم يُقَصِّر في الدفاع مرة ...

^٨ كذلك كانت حال القياصرة في تلك السنين.

^٩ هي غزوة ذات الصوري، وانظر الفصل الأول.